Black plate (46,1)

❖ قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

(اعلَمْ ـ أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه ـ أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ وحدَهُ مخلصًا له الدِّين، وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، ومعنى ﴿يَعْبُدُونَ﴾: يوحِّدونِ، وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ اللهِ بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرِهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [النساء: ٣٦]).

الشَّرْح

كرر الشيخ صيغة الأمر (اعلم): ليؤخذ الأمر مأخذ الجد والاحتفاء.

ثم دعا لسامعه **بقوله**: (أرشدَكَ اللهُ لطاعتِه): والرشد: ضد الغي والسفه، وهو: الاستقامة والصواب. والمقصود بالطاعة: الموافقة؛ موافقة الأمر فيما يجب؛ بامتثاله، وفيما يكره؛ باجتنابه.

الحنيفية

قوله: (أنَّ الحنيفيةَ: مِلَّةَ إبراهيمَ، أنْ تعبدَ اللهَ): جملة مكونة من (أنَّ)، واسمها وخبرها، (الحنيفية)، هي اسم أنّ، (ومِلَّةَ إبراهيمَ)، ليست خبرها، وإنما هي بدل من الحنيفية (أنْ تعبدَ اللهَ)، الجملة المؤولة من أنْ وما دخلت عليه هي خبر (أنّ).

والحنيفية مأخوذة من الحنف وهو: الميل؛ فالمقصود بالحنيفية:

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (47,1)

الميل عن طريق الشرك إلى طريق التوحيد، ومنه تسمي العرب الأحنف للرجل الذي في مشيه ميل، فمعنى الحنيف: أي: المائل عن طريق الضلال إلى طريق الهدى(١)، وقد وصف الله تعالى إبراهيم عليه السلام بهذا الوصف في غير ما موضع، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل: ١٢٣]؛ فالحنيفية هي: ملة إبراهيم عليه السلام، وبها بعث محمد عليه الصلاة والسلام، فقد بُعث عليه الصلاة والسلام بالحنيفية السمحة.

والملة المقصود بها: الطريقة والسيرة.

وأما إبراهيم عليه السلام فهو أحد أولى العزم من الرسل، وهو أفضل الأنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو إمام الموحدين في الأولين، وقد اتخذه الله تعالى خليلًا، كما أن الله اتخذ نبينا محمد ﷺ خليلًا، فقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥]. والخلة هي أعلى المحبة(٢) وما ذاك إلّا لأن إبراهيم عليه السلام قد محض العبادة لله رب العالمين فلم يبقَ في قلبه نزعةٌ وميلٌ إلى سوى الله عز وجل، وقد ابتلاه الله عز وجل بمواقف عظيمة أثبتت كمال توحيده لله تعالى، ومن ذلك ما جرى بينه وبين قومه حينما واجههم جميعًا وحاجّهم تلك المحاجة العظيمة حتى وصل به الأمر أن حطم آلهتهم وجعلهم جذاذًا حتى اجتمعوا عليه وقالوا: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢]. ثم إنهم وضعوا له

(١) قال ابن القيم: «والحنيف الْمقبل على الله المعرض عَمَّا سواهُ، وَمن فسره بالمائل فَلم يفسره بِنَفس مَوْضُوع اللَّفْظ وَإِنَّمَا فسره بِلَازِم الْمَعْنى؛ فَإِن الحنف هُوَ الإقبال، وَمن أقبل على شَيْء مَال عَن غَيره، والحنف فِي الرجلَيْن هُوَ إقبال إِحْدَاهمَا على الْأُخْرَى وَيلْزمهُ ميلها عَن جِهَتهَا»، جلاء الأفهام (ص٢٦٩).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٢٩٨).

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (48,1)

نارًا عظيمة وألقوه فيها وهو لم يحد عن توحيده لله ﷻ، فلما هوى وتحته ألسنة النار عرض له جبريل فقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، وأما إلى الله فبلى(١). وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (كَانَ آخِرَ قَوْلِ إِبْرَاهِيمَ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ: حَسْبِيَ اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ)(٢). فامرؤ هذا حاله في هذه المواقف العصيبة لا شك أنه قد قام قي قلبه من توحيد رب العالمين ما لا يبلغه وصف.

ومن دلائل توحيده عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى ابتلاه بحب قلبه وثمرة فؤاده وهو ابنه الذي أتاه على حين كِبَر، فأراه الله تعالى في المنام أنه يذبحه، ورؤيا الأنبياء حق. ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وما كان يستشيره في ذلك بل كان يتلطف في إخباره، فما تدري أتعجب من الأب أم تعجب من الابن: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: ١٠٢]. قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: ١٠٣]؛ أي: كما يصنع من يريد أن يذبح الشاة بالشاة ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات: ١٠٤، ١٠٥]، هكذا يكون التوحيد بأن يفرغ القلب من كل شبهة تخالف خبر الله ورسوله ومن كل شهوة تخالف أمر الله ورسوله، فهذا هو القلب السليم؛ فلذلك كان إبراهيم عليه السلام يدعو ربه ﷻ بأن يأتيه بقلب سليم فقال: ﴿وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ٨٧ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ٨٩﴾ [الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩]، قال ابن القيم: «وقد اختلفت عبارات الناس فى معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذى

(١) رواه الطبري موقوفًا على الحسن، ورواه البيهقي عن جماعة من التابعين موقوفًا، واحتج به الإمام أحمد كما نقله القاضي في طبقات الحنابلة (١/ ٤١٥).

(٢) أخرجه البخاري، رقم: (٤٥٦٤).

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (49,1)

قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره»[(١)].

فصار إبراهيم ﵇ مثلًا وعلمًا على التوحيد؛ ولذلك أمر الله تعالى نبيه باتباعه وأحاله على ملته، وصار كل من أتى بعد إبراهيم ﵇ ينتحله وينتمي إليه، ولكن ذلك لا يكون إلا لمن وافقه حقًّا وصدقًا؛ ولذا أنكر ربنا ﷿ دعوى أهل الكتاب فقال: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال أيضًا: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]، وقد رد الله على أهل الكتاب دعوى الإبراهيمية وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥].

فإبراهيم ﵇ هو إمام الموحدين، واليهود والنصارى يحاولون الانتماء إلى إبراهيم ﵇، وإبراهيم ﵇ منهم براء، بسبب ما أحدثوه من كفر وشرك، وبسبب رغبتهم عن ملته قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ وغيره: «رَغِبَ عَنْ مِلَّتِهِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى، وَاتَّخَذُوا الْيَهُودِيَّةَ وَالنَّصْرَانِيَّةَ بِدْعَةً لَيْسَتْ مِنَ اللهِ، وَتَرَكُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ؛ يَعْنِي: الْإِسْلَامَ حَنِيفًا، كَذَلِكَ بَعَثَ اللهُ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ»[(٢)]؛ فالموافقون لملة إبراهيم ﵇ هم المسلمون، وأما اليهود

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/ ٧)، وينظر: مفتاح دار السعادة (١/ ٤١)، وطريق الهجرتين وباب السعادتين (ص٣٧).
(٢) ينظر: تفسير الطبري (٢/ ٥٧٨)، ط. هجر.

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (50,1)

والنصارى فقد حادوا عن ملة إبراهيم بسبب إفسادهم في دينهم وإدخالهم البدع العقدية على ملتهم.

فالحنيفية ملة إبراهيم كما عرفها المؤلف **بقوله**: **(أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين)**: بأن تفرد الله بالعبادة وحده، ومعنى الإخلاص: التنقية، مخلصًا له الدين؛ أي: مخلصًا له العبادة.

قوله: **(وبذلك أمر الله جميع الناس، وخلقهم لها؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦])**: فالله تعالى خلق الخلقة لعبادته، وهذا الاستثناء يسمى استثناء مفرغ من أعم الأحوال[١]، مثل قولنا: (لا إله إلا الله)؛ لأنه لا يحصل التوحيد التام إلا بالنفي والإثبات، فقوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ﴾ هذا نفي، ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ هذا إثبات، وقد فسر ابن عباس رضي الله عنهما يعبدون؛ أي: يوحدون[٢]؛ لأنها لا تكون عبادة حقًّا إلا بتوحيد. فمن عبد الله وعبد معه غيره فهو مشرك، ومن لم يعبد الله عز وجل فهو كافر مستكبر، ومن عبد الله فهو الموحد الحنيف.

ما هي العبادة؟.

العبادة لها معنى من حيث اللغة ومعنى من حيث الاصطلاح:

أما العبادة من حيث اللغة فمعناها: التذلل والخضوع، تقول العرب: بعير معبد؛ أي: مذلل، ويسميه الناس الذلول لكونه مذللاً للركوب، وتقول العرب أيضًا: طريق معبد؛ أي: مهيأ للسير عليه[٣].

(١) ينظر: القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٢٥).
(٢) ينظر: معالم التنزيل (٥/ ٦٧٥).
(٣) ينظر: الصحاح، تاج اللغة وصحاح العربية (٢/ ٥٠٣)، ومقاييس اللغة (٤/ ٢٠٦).

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

وأما في الاصطلاح: فلها معنى من حيث حقيقتها ومن حيث مفرداتها:

أما حقيقة العبادة: فهي كمال المحبة مع كمال الخضوع(١)؛ أي: أن يكون العبد في قلبه محبة تامة وخضوع تام، فمن قام في قلبه هذان المعنيان، فهو عابد حقًّا.

وأما من حيث مفرداتها: فأجمع تعريف لها، ما عرفها به شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة»(٢).

هذه هي العبادة التي خلقنا الله لها، فالله تعالى ما خلقنا لكي نعمر الأرض بالأكل والشرب والنكاح والتكاثر والنوم واليقظة والموت، ثم ينتهي الأمر، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: ١١٥]، خلق الله الخليقة لعبادته، فهذه هي حقيقة العبادة التي أمر الله بها جميع أنبيائه، فلا يظن ظان أن هذا هو فقط دين محمد عليه الصلاة والسلام أو دين إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فحسب؛ كلا؛ ولذلك:

قوله: **(وبذلك أَمَرَ اللهُ جميعَ الناس وخلَقهم لها: قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣])**، هذا هو مضمون رسالات الأنبياء جميعًا، وهي عبادة الله وحده دون ما سواه، ومما يدل على هذه الجمعية قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥]، أهل

(١) ينظر: منهاج السُّنَّة النبوية (٢/ ٤٤٨)، والجواب الكافي (ص٢٢٨).
(٢) ينظر: العبودية (ص٤٤)، ومجموع الفتاوى (١٠/ ١٤٩).

Black plate (52,1)

الإيمان يقرؤون التاريخ قراءة إيمانية، فيرتبون التاريخ من لدن آدم عليه السلام مرورًا بنوح عليه السلام عبر أنبياء الله كما يصنع ابن جرير وابن كثير وغيرهما، وأما الماديون والغربيون ومن سار على شاكلتهم فإنهم يقرؤون التاريخ قراءة سطحية فيقولون: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ المعاصر، ويَصُفُّون الرسالات النبوية مصافَّ الدول والأمم والمماليك المتعاقبة، وكأنما هي مظهر من مظاهر التاريخ، بينما نحن أهل الإسلام نرى أن التاريخ هو هذه السلسة من هذه الحلقات المتصلة من أنبياء الله عز وجل، فنرى أن صلاح البشرية حينما تقترب من خط النبوة، وأن انحراف البشرية حينما تفترق عن خط النبوة، والمقصود أن العبادة تتناول جميع أمور الحياة، وليست العبادة هي ما تحيط به الجدران الأربعة وما يغطيه السقف في المساجد فقط! كلا، الحياة كلها مضمار للعبادة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]، فما من صغيرة ولا كبيرة ولا شاذة ولا فاذة إلا وتندرج ضمن العبادة، لمن أصلح الله قلبه وأنار بصيرته؛ فالمؤمن اللبيب هو الذي يحول عاداته إلى عبادات، والغافل هو الذي يقلب عباداته إلى عادات، بحيث تكون جري العادة وتقليدًا وميراثًا.

والعبادة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: **عبادة كونية**: وهي ما دلَّ عليها المعنى اللغوي.

القسم الثاني: **عبادة شرعية**: وهي ما دلَّ عليها المعنى الشرعي.

فالعبادة الكونية تشمل جميع المخلوقات لا يخرج عنها أحد قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [مريم: ٩٣، ٩٤]، فكل من يدب على وجه الأرض فهو عبد لله شاء أم أبى؛ لأنه خاضع لنواميس الكون لا يخرج عن

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة

Black plate (53,1)

قدر الله، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا، فجميع المخلوقات بهذا الاعتبار داخلة في العبودية الكونية العامة.

وأما العبودية الشرعية الخاصة، فهي عبودية المؤمنين التي تعني الموافقة والطاعة والمتابعة لدين الله ﷻ.

ويمكن أن نضيف قسمًا وهو عبودية خاصة الخاصة: وهي التي يختص بها أنبياء الله؛ لأنهم أكمل الناس عبادة.

قوله: (وأعظمُ ما أَمرَ اللهُ به التوحيدَ وهو: إفرادُ الله بالعبادة وأعظمُ ما نهى عنه الشركُ؛ وهو دعوةُ غيرهِ معهُ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء: ٣٦]).

تعريف التوحيد وأقسامه

التوحيد أعظم ما أمر الله به، وله ما بعده، وبدونه لا قيمة لشيء.

التوحيد في اللغة: جعل الشيء واحدًا، والمراد به هنا: اعتقاد الله واحدًا؛ ولذلك كان التوحيد **بالمعنى الاصطلاحي**: إفراد الله سبحانه وتعالى بالربوبية وبالعبادة وبالأسماء والصفات.

والتوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: توحيد الربوبية: وهو الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو الخالق لا خالق سواه، وهو المالك لا مالك سواه، وهو المدبر لا مدبر سواه. وبعبارة أخرى: إفراد الله بالخلق والملك والتدبير؛ لأن هذه الثلاثة عليها مدار الربوبية، وبقية صفات الربوبية ترجع إلى هذه الثلاثة. وتوحيد الربوبية قد فطر عليه جميع الخلائق؛ الإنس والجن والطير والبهائم.

ولم يكن مخالفو الرسل ينازعون في توحيد الربوبية؛ بل كانوا

z:/Mkt2021/Jawzi/kadi/osul thalatha.3d/70x100/Saturday 17th April 2021/Sanabel Press سحب ثاني/ الأصول الثلاثة